Makale Türü / Article Type / نوع المقالة : Araştırma Makalesi / Research Article / البحث
Geliş Tarihi / Date Received / تاريخ الاستلام : 10.01.2021 • Kabul Tarihi / Date Accepted / تاريخ القبول : 11.11.2021
Atıf / Cite as / الاحالة : Kheder, Lena "العلاقات النَّسقيَّة والعلاقات الاستبداليَّة في العربيَّة." *Mîzânü'l-Hak: İslami İlimler Dergisi* 13 (Aralık 2021): 459-476.

العلاقات النَّسقيَّة والعلاقات الاستبداليَّة في العربيَّة

Lena KHEDER*

الملخَّص: تهدف هذه الدِّراسة إلى البحث في موضوع العلاقات النَّسقيَّة والاستبداليَّة، وتبيان ما قدَّمته اللِّسانيَّات في هذا المضمار، وشأنُ هذه العلاقات في عمليَّة الخلق اللُّغويّ، وتحديد وظيفة اللُّغة، متَّبعين في سبيل ذلك المنهج الوصفيَّ التَّحليليَّ. والملحوظ أنَّ هذين المصطلحَين حديثان، إلَّا أنَّنا لا نعدم ذكرًا لمفهومهما في كتب علمائنا القدماء؛ فإن كانت اللِّسانيَّات علمًا حديثًا في الدِّراسات اللُّغويَّة، فإنَّ الجديد الَّذي أتت به هو المنهج، أمَّا المضمون الرَّئيسيُّ فقد نلحظه فيما خطَّه العلماء قديمًا؛ إذ تناولوا مفهومي العلاقات النَّسقيَّة والاستبداليَّة من خلال حديثهم عن علمَي المعاني والبيان؛ فوقفوا على تقنيات شتَّى قد تؤثِّر في الإثراء الشَّكليّ والدَّلاليّ لأنماط التَّشكيل اللُّغويّ؛ من ذلك: الحذف Deletion، والمجاز Metaphor، والتَّقديم والتَّأخير Permutation... إلخ. وتتجلَّى أهمِّيَّة البحث في معالجته ثنائيَّة العلاقات الَّتي تكوِّن اللُّغة، وقد خلُصَت الدِّراسة إلى أنَّ قوام اللُّغة هو العلاقات الرَّابطة بين عناصرها.

الكلمات المفتاحيّة: العلاقات النَّسقيَّة، العلاقات الاستبداليَّة، اللُّغة، اللِّسانيَّات.

Arapça'da Sözdizim ve Dönüşümsel İlişkiler

Öz: Bu çalışma, sözdizimsel ve ikame edici ilişkiler konusunu araştırmayı ve dilbilimin bu alanda neler sunduğunu ve bu ilişkilerin dilin oluşum sürecindeki etkisini netleştirmeyi ve betimsel-analitik yaklaşımdan yola çıkarak dilin işlevini belirlemeyi amaçlamaktadır. Dilsel araştırmalar dilbilim alanında modern çalışmalar olsa da getirdiği yenilik yöntem noktasındadır. Temel kavramların çerçevesi ise klasik kaynaklarda çizilmiştir. Onlar anlam bilimi ve deyimle ilgili konuşmaları aracılığıyla sistemsel ve ikamesel ilişkiler kavramlarını ele almışlar; dilsel oluşum kalıplarının biçimsel ve anlamsal zenginleşmesini etkileyebilecek hazf, mecaz ve takdim-te'hir gibi teknikler üzerinde durmuşlardır. Araştırmanın önemi, dili oluşturan ilişkilerin ikiliğini ele alışına dayanmaktadır.

Anahtar Kelimeler: Sistematik İlişkiler, İkame İlişkileri, Dil, Dilbilim.

Systematic and Substitution Relations in Arabic

Abstract: This study aims to research the subject of syntactic and substitutive relations, and to clarify what linguistics has presented in this field, and the status of these relations in the process of linguistic creation, and to determine the function of language, following the descriptive-analytical approach. It is noticeable that these two terms are modern. If linguistics is a modern science in linguistic studies, the new one that it brought is the curriculum, and the main content we can note in what the scholars wrote in the past; They dealt with the concepts of systemic and substitutional relations through their talk about the science of meanings and the statement; They stood on various techniques that might affect the formal and semantic enrichment of linguistic formation patterns. The importance of the research is reflected in its treatment of the duality of the relationships that make up the language.

Keywords: Systematic relations, Substitution relations, Language, Linguistics.

* Dr. E-Posta: lenamohammad1989@gmail.com ORCID ID: https://www.orcid.org/0000-0002-0616-7675

المقدّمة

يشكّل النَّسق التَّركيبيّ System Syntactic مبحثًا مهمًّا من مباحث اللِّسانيَّات Linguistics؛ إذ تتكوَّن اللُّغة Language من نوعين من العلاقات هما الأساس في خلق بنية لغويَّة دلاليَّة، وقد تعدَّدت تسميات هذه العلاقات بسبب التَّرجمة؛ فالنَّوع الأوَّل من العلاقات يُدعَى بـالعلاقات النَّسقيَّة Systematic Relations أو الأفقيَّة أو التَّركيبيَّة أو الائتلافيَّة أو التَّرابطيَّة، أمّا النَّوع الثَّاني فيُسمَّى بـالعلاقات الاستبداليَّة Relations Paradigmatique أو العموديَّة أو الاختياريَّة أو الجدوليَّة أو الإيحائيَّة.

وتسعى الدِّراسة إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية: ما الجديد الَّذي قدَّمته اللِّسانيَّات في الحديث عن مفهومَي العلاقات الاستبداليَّة والعلاقات النَّسقيَّة؟ وما أثر هذين المفهومَين في عمليَّة الخلق اللُّغويّ؟ وهل التَّغييرات في النَّسق التَّركيبيّ اعتباطيَّة؟ وإلى أيّ مدى تحمل هذه التَّغييرات بعدًا دلاليًّا؟ وما أثرها في المتلقِّي؟ ألا يمكن ألّا تكون ثمَّة فائدة بل إعاقة دلاليَّة من جراء استخدامها؟ وإلى أيّ مدى يسهم السِّياق في وظيفتها ضمن النَّصّ؟

مجموعة من الاستفسارات تحاول هذه الدِّراسة معالجتها عن طريق الوقوف على ثلاث نقاط رئيسيَّة؛ النُّقطة الأولى تتناول اللُّغة من منظور فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (ت ١٩١٣ م)، وأهمِّيَّة النِّظام System في تشكيلها، والنُّقطة الثَّانية تتحدَّث عن مفهوم العلاقات النَّسقيَّة، أمَّا النُّقطة الثَّالثة فتدور حول العلاقات الاستبداليَّة، كما سيتطرَّق البحث أيضًا إلى بعض النَّماذج التَّطبيقيَّة.

أوّلًا: اللُّغة– عناصر تشكيلها ووظائفها

بنى فرديناند دي سوسير نظريَّته اللِّسانيَّة وفق مبدأ النِّظام الَّذي يعدُّ أساس اللّسانيَّات وفقًا له، والنِّظام «مجموعة من الوحدات الَّتي تتفاعل فيما بينها على نحو يجعل كل وحدة داخل النِّظام لا تكتسب قيمتها من ذاتها، وإنَّما من خلال علاقتها ببقية وحدات النِّظام»[١]. وعوَّل دي سوسير على النِّظام في تعريف اللُّغة، كما أنَّه انطلق منه في حديثه عن ثنائيَّاته (الدَّال والمدلول، والدِّراسة الآنيَّة، والزَّمانيَّة، والعلاقات الاستبداليَّة والنَّسقيَّة... إلخ)، فكان النِّظام منطلقًا لدراساته وعمادها وجوهرها، ويرجع سبب مركزيَّة هذا المفهوم «في الدرس

١ حسين السوداني، أصول التّفكير الدّلالي عند العرب *(من اللُّزوم المنطقيّ إلى الاستدلال البلاغيّ)*، (الرّياض: مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ٢٠١٧)، ٣.

السوسيري... إلى مركزيَّته في جوهر عمل الذِّهن البشريّ نفسه، فالنِّظام هو الفرضية الأساسية الَّتي يبني عليها الذِّهن إدراكه لكلِّ الظَّواهر الَّتي يتَّخذها موضوعًا»[٢].

وعليه، لا يمكن أن تكون اللُّغة محض كلمات بلا رابط بينها؛ إذ إنَّها نظامٌ تتآلف عناصره وتتعالق مشكلةً ذلك البناء اللُّغوي، فهي نظام لغويٌّ له ترتيبٌ خاصٌّ، وقد شبَّه سوسير هذا النِّظام بلعبة الشَّطرنج؛ راميًا من هذا التَّشبيه تأكيد أثر ما هو داخليٌّ في تغيير النِّظام؛ فمن اليسير أن نحدِّد ما هو خارجيٌّ في الشَّطرنج، ونفصله عمَّا هو داخليٌّ، ثمَّ إنَّ تغيير بعض قطع الشَّطرنج بقطع أخرى؛ لا يؤثِّر في نظام اللعبة، في حين أنَّ إنقاص إحدى قطعها أو زيادتها سيكون له تأثيرٌ في نظامها، وهذا يعني أنَّ ما خارج النِّظام لا يؤثِّر به، وعلى العكس من ذلك تتحكَّم دراسة اللُّغة من الدَّاخل في تغيير النِّظام[٣]. وتتكوَّن اللُّغة من مجموعةٍ من العلاقات المترابطة فيما بينها، وتتشكَّل هذه العلاقات وفق محورين؛ وهما: محورٌ أفقيٌّ، وتنتج عنه العلاقات النَّسقيَّة، ومحورٌ عموديٌّ، تنتج عنه العلاقات الاستبداليَّة، وينتج عن هذين النَّوعين من العلاقات فروقٌ صوتيَّة ودلاليَّة، تتضح من خلال السِّياق النَّصيّ.

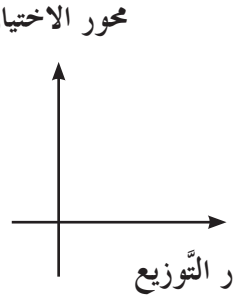

الشكل (١)

يدلُّ السَّهم الأفقيُّ على «ترتيب العناصر في القول المكتوب أو المنطوق، أمَّا السَّهم العمودي (الرأسي) فيشير إلى تلك العناصر المحتملة في الذَّاكرة، وهي تمثِّل بدائل تستحضرها العناصر المذكورة»[٤]. وتتشكّل اللُّغة من العلاقة القائمة بين عنصرَين رئيسيَّن ألا وهما: الاختيار والتَّوزيع، ويتحكَّم محور الاختيار في البدائل اللُّغويَّة، وبذلك يتحكَّمُ «في محور التَّوزيع، ويمنحه تلك التَّعدديَّة في المعنى والدَّلالة الَّتي يتَّسمُ بها النَّصُّ حين تسود الوظيفة

٢ السوداني، أصول التّفكير الدّلالي عند العرب *(من اللُّزوم المنطقيّ إلى الاستدلال البلاغيّ)*، ٢١.
٣ انظر: فرديناند دي سوسور، علم اللُّغة العام، ترجمة: د.يوئيل يوسف عزيز (بغداد: دار آفاق عربيَّة، ١٩٨٥)، ٤١.
٤ إبراهيم محمود خليل، في اللسانيات ونحو النص، (عمان: دار المسيرة، ٢٠٠٩)، ١٩.

الشِّعريَّة فيه»[٥]، فالتَّأليف بين الألفاظ المختارة له أثرٌ مهمٌّ في عمليَّة التَّشكيل اللُّغويّ، والاختيار وآليَّة التَّركيب يفيدان في إثراء التَّعبير اللُّغويّ بصياغاتٍ عدَّة، من غير أن يتجاوز المتكلِّم ما يقتضيه علم النَّحو، فعمليَّة التَّشكيل اللُّغويّ تلتزم التَّعويل على المعيار النَّحويّ Grammar Standard، فليس الاختيار والتَّأليف بمنأى عنه؛ ذلك أنَّ الارتباط بين ألفاظ الجملة لا يكون عشوائيًّا، فليس المقصود ضمَّ وحدات كيفما اتَّفق.

وللُّغة ستَّة عناصر رئيسيَّة لا تقوم عمليَّة التَّواصل اللُّغويّ من غيرها؛ وهي: المرسِل، والرِّسالة، والمرسَل إليه، والسِّياق Cotext، وقناة الاتِّصال، والشِّفرة Code. وقد حدَّد رومان ياكبسون Roman Jackobson (ت ١٩٨٢ م) وظائف اللُّغة Language Functions في النَّموذج الَّذي وضعه، الخاصّ بـ الاتِّصال الإعلاميّ، ورأى أنَّ كلَّ تواصلٍ لغويٍّ يحتاج إلى ستَّة عناصر لا يمكن الاستغناء عن أحدها؛ وتتم عمليَّة الاتِّصال على النَّحو الآتي: يبعث المُرسِل رسالةً إلى المُرسَل إليه، والرِّسالة تقتضي سياقًا تتَّصل به، وشفرةً مشتركةً بينه وبين المرسِل اشتراكًا كليًّا أو جزئيًّا، ثمَّ قناة الاتِّصال بين المرسِل والمرسَل إليه، تمكِّنهما من ممارسة عمليَّة الاتِّصال والحفاظ عليها:

السِّياق

المرسِل الرِّسالة المرسَل إليه

قناة الاتِّصال

الشِّفرة[٦]

وترتبط وظيفة اللُّغة بالعنصر الَّذي تركِّز عليه، فنوع الخطاب وهدفه يجعلان التَّركيز على أحد عناصر اللُّغة أكثر من بقيَّة العناصر، ولكلِّ عنصرٍ من هذه العناصر وظيفة معيَّنة؛ الوظيفة المرجعيَّة Function Referantial وتركِّز على السِّياق، والوظيفة العاطفيَّة Function Emotive، وتتوجَّه عنايتها إلى المرسِل، في حين تهتمُّ الوظيفة الطَّلبيَّة Function Conative بالمرسَل إليه، والوظيفة التَّأكيديَّة Function Phatique تُعنى بقناة الاتِّصال، والوظيفة الميتالغويَّة Function Metalinguistique: تركِّز على الشِّفرة، وتهتمُّ بأن يكون المتكلِّم والسَّامع مستخدمَين

٥ نبيل راغب، موسوعة النَّظريَّات الأدبيَّة الحديثة، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، القاهرة: الشَّركة المصريَّة العالميّة للنَّشر– لونجمان، ٢٠٠٣)، ٣٧٩.

٦ انظر: سوسور، علم اللُّغة العام، ٢٧–٢٨.

الشِّفرة ذاتها، وأمَّا الوظيفة الشِّعريَّة Function Poetics فتركِّز على الرِّسالة نفسها[٧]. وتشترك هذه الوظائف سويَّة في كلِّ خطاب لغويٍّ، إلَّا أنَّها تتفاوت في دورها ومركزيَّتها وفقًا لنوع الخطاب (إعلان، نصّ أدبيّ، تقرير... إلخ).

ثانيًا: مفهوم العلاقات النَّسقيَّة

تهتمُّ العلاقات النَّسقيَّة بترتيب الوحدات الكلاميَّة ضمن الجملة، والعلاقة بين هذه الوحدات أفقيًّا/ خطيًّا، والتَّرابط بينها؛ إذ تترابط هذه الوحدات «ترابطًا شبكيًّا، وذلك على نحوٍ يجعل كلَّ وحدةٍ مترابطةٍ ترابطًا وثيقًا مع بقية الوحدات: تحدِّدها وتتحدَّد بها، وينعقد ذلك بكيفيَّات مختلفة من لسانٍ إلى آخر»[٨]؛ إذ ترتبط الكلمات الموجودة ضمن نصٍّ معيَّن فيما بينها، مشكِّلةً علاقات تقوم على الطَّبيعة الخطيَّة للُّغة، وتكون هذه الكلمات مرتَّبة ترتيبًا تعاقبيًّا في سلسلة الكلام، ويثمر هذا الرَّبط الأفقيُّ بين الوحدات الكلاميَّة علاقة نسقيَّة، يكتسب فيها كلُّ عنصرٍ قيمته من خلال تعالقه مع ما قبله وبعده من وحدات، أو معهما في آنٍ واحد، وبذلك تغدو جميع العناصر اللُّغويَّة معتمدةً على ما يجاورها ويكتنفها ضمن السِّلسلة الكلاميَّة، ومن جهةٍ أخرى لا قيمة للكلِّ إلَّا من خلال أجزائه، والعكس صحيح، فموقع الجزء ضمن النَّصِّ هو ما يعطيه قيمته[٩].

ومن هنا يتَّضح أثر التَّرابط بين وحدات السِّلسلة الكلاميَّة؛ ذلك أنَّ «جهاز اللُّغة الَّذي يتألف من التأثير المتبادل بين العناصر المتعاقبة يُشبه عمل محرِّكٍ تقوم أجزاؤه بوظائفها، معتمدًا بعضها على الآخر، مع أنَّ هذه الأجزاء مرتَّبةً في بعد واحد (على هيئة خط)»[١٠]، فطريقة ترتيب الكلمات وارتباطها واتِّساقها مع ما قبلَها وما بعدَها يؤثِّر تأثيرًا لا تخفى أهمِّيَّته في عمليَّة الإنشاء اللُّغويّ؛ إذ «اللُّغة تتابعٌ من العلامات، وكلُّ علامةٍ تضيف شيئًا إلى المعنى الكلي، وهذه العلامات يرتبط بعضها ببعض بعلاقات يحدِّدها النِّظام اللُّغويّ في كل لغة»[١١]، فالعلاقات الرَّابطة بين وحدات النِّظام تعطيها قيمتها، والعلاقة والقيمة مرهونان بعضهما ببعض، ولا يمكن تصوُّر وجود أحد هذين العنصرَين من غير وجود الآخر.

٧ انظر: رومان ياكبسون، قضايا الشِّعريَّة، ترجمة: محمَّد الولي ومبارك حنون (الدَّار البيضاء: دار توبقال، ١٩٨٨)، ٢٨- ٣١.

٨ السوداني، أصول التّفكير الدّلالي عند العرب *(من اللُّزوم المنطقيّ إلى الاستدلال البلاغيّ)*، ٧.

٩ انظر: سوسور، علم اللُّغة العام، ١٤٢-١٤٧.

١٠ سوسور، علم اللُّغة العام، ١٤٨.

١١ نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، (القاهرة: مكتبة الآداب، د. ت)، ٨١.

وفي الحديث عن العلاقة بين الوحدات الكلاميَّة؛ نعرّج على ما جاء به عبد القاهر الجرجانيُّ (ت ٤٧١ هـ) الَّذي ما فتئ يتحدَّث عن العلاقة بين أجزاء الكلام، فهو يرى أنَّ «الألفاظ لا تُفيد حتَّى تُؤلِّفَ ضربًا خاصًّا من التَّأليف، ويُعمَدُ بها إلى وجهٍ دون وجهٍ من التَّركيب والتَّرتيب»[١٢]، فثمَّة آليَّة تقوم عليها اللُّغة، وذلك لا يكون بمعزلٍ عن السِّياق، فمزيَّة الكلام ترجِعُ إلى النَّظم وما يولِّده من حسنِ ارتباطِ الكلامِ وتآلفهِ، و»لو كانتِ الكلمةُ إذا حَسُنَتْ حَسُنَتْ من حيث هي لفظٌ، وإذا استحقَّت المزيَّةَ والشرفَ استحقَّتْ ذلك في ذاتِها وعلى انفرادِها، دونَ أن يكونَ السَّبب في ذلك حال لها مع أَخَواتها المجاورةِ لها في النَّظم، لما اختلف بها الحالُ ولكانت إمَّا أنْ تَحْسُنَ أبدًا أو لا تَحْسُنَ أبدًا"[١٣]، فللتَّأليف والائتلاف بين عناصر اللُّغة أثرٌ جليٌّ في التَّشكيل اللُّغويّ، فلا قيمة للألفاظ مفردة، مجرَّدة من السِّياق، ولا تفاضل بينها إلَّا في ملائمتها لمعنى ما يجاورها ويكتنفها، وهذا ما أكَّده سوسير؛ إذ إنَّ «جميع الوحدات اللُّغويَّة تعتمد على ما يحيط بها في السِّلسة المنطوقة أو تعتمد على الأجزاء التالية لها»[١٤]. ثَّم إنَّ العلاقات بين الألفاظ تتبع المعاني، وكلُّ تغيير في ترتيب هذه الألفاظ قد يتبعه تغيير في المعنى، وهذا التَّغيير الواقع على المستوى الأفقيّ لا يؤثِّر في علاقة العناصر فيما بينها فحسب، بل بعلاقة العناصر مع السِّلسلة الكلاميَّة كلِّها، فـ «قيمة مجموعة ما غالبا ما تعتمد على تسلسل العناصر فيها. فالمرء عند تحليله للسنتاكم لا يقتصر على تشخيص أجزائه: فهو يلاحظ نظامًا معينًا من التسلسل في هذه العناصر»[١٥].

وفي العبث والتَّلاعب بالوحدات الكلاميَّة خطيًّا ما يشي بدلالةٍ لا تتحقَّق إلَّا بهذا التَّرتيب، فتقديم الفعل له وظيفةٌ مختلفةٌ عن تقديم الاسم، وتقديم الخبر أو المفعول به أو الحال... إلخ، لا يقع دونما فائدة دلاليَّة، والعدول في الكلام من جملة اسميَّة إلى فعليَّة أو العكس يحقِّق فروقًا دلاليَّةً، و»الفرق بين الجملتَين الاسميَّة والفعليَّة إن هو إلَّا اختلاف في توزيع المتكلِّم لمكوِّنات الإسناد على السِّلسلة المنطوقة، وهذا التَّوزيع خاضعٌ لمحدِّداتٍ في نفس المتكلِّم»[١٦]. والتَّقديم والتَّأخير مصطلحٌ يعتمد على التَّبادل وإعادة ترتيب العناصر داخل الجملة[١٧]، وهذا ما يُسمَّى بالعدول النَّوعيّ النَّسقيّ، ويُكسِب التَّقديم والتَّأخير

١٢ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، (القاهرة: مطبعة المدني، جدَّة: دار المدني، د. ت)، ٤.

١٣ الجرجاني، أسرار البلاغة، ٤٨.

١٤ سوسور، علم اللُّغة العام، ١٤٧.

١٥ سوسور، علم اللُّغة العام، ١٥٨.

١٦ السوداني، أصول التّفكير الدّلالي عند العرب *(من اللُّزوم المنطقيّ إلى الاستدلال البلاغيّ)*، ٠٨٣.

١٧ David Crystal, A Dictionary of Linguistics and Phonetics, (United States: Blackwell Publishing, 2008), 35.

الجملة خصوصيَّة، تتجلَّى بالاختلاف الحاصل على صعيد التَّركيب من خلال تغيير موقع المسند والمسند إليه ومتمِّمات الجملة، فتولد إسنادات جديدة تحمل بين جنباتها علاقاتٍ جديدة، ويحمل هذا الاختلاف بعدًا دلاليًّا، ثمّ إنَّ «علاقات التداعي بين المنجز والذِّهنيّ هي الَّتي تحقق قيمة دلاليَّة لظواهر مثل التَّقديم والتَّأخير مثلًا، فقوانين النَّظم قائمة على أساس أنَّ الأبنية أصول لها فروع، وإنَّما ينصرف الواضع عن بنية منجزة إلى أخرى لأنَّه يقدِّر أنها أكثر إيفاء بالدَّلالة»[١٨]، فعدول المبدع عن نمطٍ معيَّن في التَّعبير إلى نمطٍ آخر إنَّما يكون لعلَّة دلاليَّة.

أشار العالم اللُّغويُّ نعوم تشومسكيNoam Chomsky إلى أهمِّيَّة هذه الظَّاهرة في نظريَّته التَّوليديَّة التَّحويليَّة، فعن طريق القواعد التَّحويليَّة Transformational Rules؛ كالحذف والتَّقديم والتَّأخير وسواها نستطيع توليد عددٍ غير محدودٍ من الجمل[١٩]، وذلك من غير أن نستثني المعنى في التَّحليل؛ ذلك أنَّه من الواجب «أن نعرف معنى المورفيمات أو الكلمات الَّتي تتألف منها الجملة، وما تشير إليه هذه المورفيمات أو الكلمات في العالم الخارجي»[٢٠].

وعليه، ثمَّة أصلٌ تستند إليه اللُّغة، بيد أنَّها قد تعدل عنه من غير أن تخرج في ذلك عن المعيار النَّحويّ، لأسباب تتَّصل بأمورٍ فوق نصيَّة Meta Text، فقد يلجأ الباثُّ إلى العبث واللَّعب بمحور التَّركيب (محور العلاقات الأفقيَّة)؛ إذ «تمثِّل الحركة الأفقيَّة للصِّياغة محورًا من محاور الخلق اللُّغويّ يعملُ بشكلٍ أساسي على تحطيم الإطار الثَّابت للأسلوب ولقوانين اللُّغة وقواعد الكلام»[٢١]، وللتَّقديم والتَّأخير أنواع كثيرة، فقد يتقدَّم الخبر على المبتدأ أو على ما أصله مبتدأ، وقد يتقدَّم المفعول به على الفعل أو الفاعل... إلخ، ولذلك أغراض وفوائد يحدِّدها سياق الكلام، فالمعيار في تركيب الجملة هو أن «تقْتفي في نَظمِها آثارَ المعاني، وتُرتِّبُها على حسبِ تَرتُّبِ المعاني في النَّفس. فهو إذن نظمٌ يُعتبرُ فيه حالُ المنظُوم بعضهُ معَ بعضٍ»[٢٢]؛ إذ إنَّ ترتيب العناصر في الجملة تابعٌ للمعنى المراد، لكن إلى أيّ مدى تقدِّم هذه الظَّاهرة دلالات جديدة؟ وهل أنواعها سواء من حيث المزيَّة والأهمِّيَّة؟

١٨ السوداني، أصول التّفكير الدّلالي عند العرب *(من اللُّزوم المنطقيّ إلى الاستدلال البلاغيّ)*، ٤٣٦.

١٩ انظر: نوم جومسكي، البِنى النَّحويَّة، ترجمة: د.يؤيل يوسف عزيز (بغداد: دار الشُّؤون الثَّقافيَّة العامَّة، ١٩٨٧)، ١٧- ٢٦.

٢٠ جومسكي، البِنى النَّحويَّة، ١٣٨.

٢١ محمَّد عبد المطَّلب، جدليَّة الإفراد والتَّركيب في النَّقد العربي القديم، (القاهرة: الشَّركة المصريَّة العالميّة للنَّشر- لونجمان، ١٩٩٥)، ١٦١- ١٦٢.

٢٢ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠٤)، ٤٩.

ليس تحريك العناصر على المستوى الأفقيّ للجملة يمنحها بعدًا دلاليًّا أبدًا، ولذلك سأعرض فيما يأتي ثلّة من الأمثلة لتوضيح وظيفة هذه التِّقنيَّة، على أنَّني لن أستوفي في العرض ضروب التَّقديم والتَّأخير جمعاء؛ فقد ذخرت بها كتب النَّحو والبلاغة[٢٣]، إنَّما أحاول الوقوف على الدَّلالة الإضافيَّة الَّتي قد تقدِّمها هذه الظَّاهرة.

من ضروب التَّقديم؛ تقديم المفعول به على الفعل؛ «كقولك: زيدًا ضَرَبتُ، وضَربتُ زيدًا، فإن في قولك: (زيدًا ضربتُ) تخصيصًا له بالضَّرب دون غيرِه، وذلك بخلاف قولك: (ضربتُ زيدًا)؛ لأنك إذا قدَّمت الفعل كنت بالخيار في إيقاعه على أيِّ مفعولٍ شئت، بأن تقول: ضربت خالدًا، أو بكرًا أو غيرهما، وإذا أخَّرتَهُ لَزِمَ الاختصاصُ للمفعول»[٢٤]، فتقديم المفعول به في المثال السَّالف أفاد أنَّ زيدًا هو المخصوص بالضَّرب وليس غيره. ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢٥]؛ إذ يشي تقديم المفعول به (إيَّاك) أنَّ الله عزَّ وجل هو المخصوص بالعبادة والاستعانة؛ إذ تقتصران عليه.

وبذلك تختلف وظيفة التَّقديم والتَّأخير تبعًا للسِّياق والعنصر المقدَّم، وقد عرض الجرجانيُّ أنواعًا عدَّة لهذه الظَّاهرة، مبيِّنًا اختلاف المعنى باختلاف ما قُدِّم أو أُخِّر سواء أكان اسمًا أم فعلًا أم إن كان في سياق النَّفي أو الاستفهام؛ إذ إنَّ المعنى يختلف وفقًا لما يقع بعد همزة الاستفهام؛ فعل أو اسم؟ فإذا بدأت بالفعل، فقلت: (أفعلت؟) كان الشَّكُّ في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم حصوله أو عكس ذلك. أمَّا إذا قلت: (أأنت فعلت؟) بادئًا بالاسم؛ كان الشَّكُّ في الفاعل من هو، لا الفعل، وكان التَّردُّد فيه[٢٦].

ومن أمثلة هذه الظَّاهرة قول الفرزدق: [الطَّويل]

وما مثلُهُ في النَّاسِ إلا مُمَلَّكاً أبُو أمِّهِ حَيٌّ أبوهُ يقاربُهْ

٢٣ انظر على سبيل المثال: أبو بشر عَمرو بن عثمان بن قَنبر ، كتاب سيبويه، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٢)، ١، ٣٤؛ أبو الفتح عُثمان بن جنّي، الخصائص، (د. م: المكتبة العلميَّة، د.ت)، ٢، ٣٨٢- ٣٨٤؛ يحيى بن حمزة العلوي، الطِّراز المتضمِّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، (مصر: دار الكتب الخديويَّة، ١٩١٤)، ٢، ٥٦ وما بعدها.

٢٤ ضياء الدِّين بن الأثير، المثل السَّائر في أدب الكاتب والشَّاعر، (القاهرة: دار نهضة مصر، د. ت)، ٢: ٢١٠- ٢١١.

٢٥ الفاتحة: ٥.

٢٦ انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١١٠-١١١.

»لم يُرتِّب الألفاظ في الذكر، على مُوجب ترتيب المعاني في الفكر، فكدَّ وكَدَّر، ومنع السامع أن يفهم الغرضَ إلاّ بأنْ يُقدِّم ويؤخِّر، ثم أسرفَ في إبطال النِّظام، وإبعاد المرَام، وصار كمن رَمَى بأجزاءٍ تتألّف منها صورةٌ»[٢٧]، فقد أراد الشَّاعر أن يعبّر عن أنَّه لا يوجد من يشبه ممدوحه بحسن الخلُق إلّا مُملَّكًا، غير أنَّه آثر التَّعسُّف في التَّعبير؛ فقدَّم المستثنى بإلَّا (مملَّكًا) على المستثنى منه «حي»، وفصل بين المبتدأ (أبو) والخبر (أبوه) بكلمة (حي)، كما فصل بين الموصوف (حي) وصفته جملة «يقاربه»؛ إنَّ الاستخدام غير المناسب للتَّقديم والتَّأخير هاهنا شوَّه النَّصَّ، وجعله آيةً على التَّعقيد اللَّفظيِّ الَّذي يولِّد صعوبة في فهم المراد.

من ذلك أيضًا ما نجده في قصيدة (لأنِّي غَريب) للشَّاعر بدر شاكر السَّيَّاب:

لأنِّي غَريب

لأنَّ العراقَ الحبيب

بعيدٌ، وأنِّي هُنا في اشتياق

إليهِ، إليها أُنادي: عراق

فيرجِعُ لي من نِدائي نَحيب

تَفجَّر عنهُ الصَّدى[٢٨]

يبدأ السَّيَّاب قصيدته بقوله: (لأنِّي غريب)، معلِّلًا ما يعتريه من مشاعر بثَّها في قصيدته؛ إذ إنَّه يشعر بآلام الغربة منذ ابتعاده عن موطنه (العراق)؛ وغدت الحياة بكلِّ تفاصيلها حزينة. التَّعليل يأتي عادةً بعد السَّبب، بيد أنَّ الشاعر آثرَ البدء به مخالفًا المعتاد في تركيب الكلام؛ وهذه المخالفة ولَّدت الدَّهشة والتَّشويق وتنبيه المتلقِّي ومنح نصِّه الاختلاف عن المألوف. ويسيطر الانحراف على هذا النَّصِّ من خلال خرق المعيار النَّحويّ، فتقدَّم (متعلّق الجار والمجرور– إليه، إليها) على الفعل (أنادي)، وهو متأخِّر رتبة، ما أفاد معنى يشي بحاجة الشاعر إلى (إليه وإليها)، وهذا يعيدنا إلى المطلع (لأني غريب)، فشعور الغربة جعله بأمس الحاجة للآخر، فكان تقديم الجار والمجرور متساوقًا مع السِّياق العام للقصيدة؛ وبذلك كانت هذه الانحرافات مليئة بالطَّاقة التَّعبيريَّة المتناسبة مع حالة المُبدِع الوجدانيَّة المفعمة بالحزن.

٢٧ الجرجاني، أسرار البلاغة، ٢٠.

٢٨ السَّيَّاب، ديوان بدر شاكر السَّيَّاب، (بيروت: دار العودة، ١٩٧١)، ١٩٥.

يغدو جليًّا ممَّا سبق ارتباط وظيفة التَّقديم والتَّأخير بالسِّياق وطريقة الباثِّ في توظيفه، كما يتبيَّن أثر هذه التِّقنيَّة في إثراء دلالة الجملة، ومنحها بعدًا دلاليًّا أعمق، فهذا الخرق على المستوى التَّركيبيّ يمنح النَّصَّ ثراءً دلاليًّا من خلال نسج الكلام بطريقةٍ مخصوصةٍ، ومن ثمَّ تضيف هذه التِّقنيَّة على الجملة أمرين؛ أوَّلهما: التَّغيير في ترتيب العناصر في الجملة، وهذا ما يجهض الرَّتابة عنها، وثانيهما: دلالات جديدة ولَّدها هذا الإسناد الجديد.

ومن دواعي أهمِّيَّة العلاقات النَّسقيَّة وأنماط ترتيب الكلام، يُلحظ أنَّ تجاور الألفاظ فيما بينها يسهم أكثر في تحديد المقصود منها، فـ»الكلمة قد تكون ذات معنى محدد، لكنها تكتسب قيمتها من مجاورتها لكلمةٍ أخرى تدلُّ على هذا المعنى في سياق آخر»[٢٩]، ولاسيَّما في الألفاظ الَّتي قد تحمل أكثر من معنى، أو الَّتي تحمل معاني متناقضة؛ كالمشترك اللَّفظيّ والتَّضادِّ، فهاهنا يكون للتَّجاور دوره في تحديد المقصود وتوضيح المعنى؛ فعلى سبيل المثال كلمة (العين) تحمل معاني كثيرة؛ منها: أداة البصر، والجاسوس، وعين الماء، ونفس الشَّيء، والنَّقد، والعين الباصرة... إلخ، ونعرف من السِّياق المعنى المقصود، ومن جهة أخرى –مثلًا– نجد التَّمييز بين أخ الأمِّ (الخال) وأخ الأب (العم) في العربيَّة أوضح منه في الإنجليزيَّة، «فلا توجد إلا كلمة واحدة للدلالة على شقيق الأم وشقيق الأب، وهي كلمة uncle؛ لذا كانت كلمة (خال) في العربيَّة تتمتع بتمييز دلالي أكثر من ذلك الَّذي تتمتع به الكلمة المقابلة لها بالإنجليزية؛ لأن السامع والقارئ على السواء محتاجان عند استعمالهما للكلمة الإنجليزية للنظر في السياق لمعرفة أي القريبين هو المعنيّ»[٣٠]، وفي هذا ما يشير إلى أثر التَّجاور بين الوحدات الكلاميَّة في الدَّلالة، وارتباط هذا التَّجاور بالسِّياق، فلا يمكن الإقرار بأهمِّيَّة الاختلاف الحاصل في المستوى الأفقيّ من غير النَّظر في وظيفته ضمن النَّصّ.

ثالثًا: مفهوم العلاقات الاستبداليَّة

تقوم العلاقات الاستبداليَّة على فكرة الخيارات المتعدِّدة للوحدة الكلاميَّة، فالكلمات يجمع بينها علاقات ما فوق نصيَّة، بمعنى أنَّه بين مجموعة من الكلمات المتقاربة في الدَّلالة علاقات استبدال ترتبط في الذَّاكرة؛ وهذه العلاقات تتمثَّل في التَّرادف أو التَّضادِّ أو المشترك اللَّفظيّ. والخيارات اللُّغويَّة وإن تساوت في المعنى تختلف دلالتها تبعًا للعنصر المختار، وثمَّة علاقةٌ بين الأجزاء فيما بينها وبين الجزء والكلّ، فلمجموعة الاختيارات

٢٩ خليل، في اللسانيات ونحو النص، ٢١.

٣٠ خليل، في اللسانيات ونحو النص، ٢١.

وأنماط التَّركيب دورٌ فعَّالٌ في الكلام الَّذي لا ينشأ إلَّا من هذه الغربلة العقليَّة لكلِّ احتمال قد لا يؤدِّي بالمتكلِّم إلى الوصول إلى ما يريده، ويتعلَّق الاختيار بجميع الوحدات ضمن السِّلسلة الكلاميَّة بغضِّ النَّظر عن حجمها طالما لها دلالة؛ فالفونيم وهو أصغر وحدة صوتيَّة دالَّة على المعنى، له دور فعَّال في نظام حالة لغويَّة؛ فعلى سبيل المثال، إنَّ وجود الأصوات (m, p, t) في نهاية كلمة أجنبيَّة أو غيابها في موقع معيّن، له دلالة في تركيب الكلمة وتركيب الجملة، وبذلك يكون اختيار الصَّوت المفرد أو أيِّ وحدة أخرى، بعد تقابلٍ ثنائيٍّ عقليٍّ[٣١].

وإنَّ عمليتَي الاختيار والتَّوزيع تتعلَّقان بالمتكلِّم والسِّياق، ويستفيد المتكلِّم من «الاحتمالات الممكنة لصوغ عدد كبير جدًا من الكلمات بتقليب الأصوات على أوجه مختلفة، وتأليفها على أشكال متباينة لوضع كلمات جديدة. ومستخدم اللُّغة يركب المصرّفات، والكلمات الموضوعة على أوجه مختلفة تناسب المعنى المراد نقله لمخاطبه»[٣٢]؛ فعلى سبيل المثال لو أخذنا الجملة الآتية: «ألّف العالمُ كتاباً مهمًّا». يُلحظ أنَّ المتكلِّم ها هنا اختار (ألَّف) بدلًا من (كتب) أو (أنجز)، واختار (العالم) بدلاً من (الباحث) أو (المبدع)... وسوى ذلك، واختار (كتابًا) عوضًا من (بحثًا) أو (مؤلّفًا)... إلخ. وهذا يشير إلى أنَّ النِّظام يقوم «على جملة من القيم الخلافية الَّتي تميز الوحدة اللُّغويّة من غيرها»[٣٣]، وإن كانت العلاقات النَّسقيَّة تدلّ على «نظام من التعاقب و... عدد ثابت من العناصر. [فإن] العناصر في المجموعة الإيحائية ... لا تقع في نظام ثابت أو عدد ثابت،... [فـ] لا نستطيع التنبؤ بعدد الكلمات الَّتي توحي بها الذاكرة أو النِّظام الَّذي تظهر فيه هذه الكلمات. فالكلمة تشبه المركز في مجموعة فلكية يلتقي فيها عدد غير محدود من العناصر المتشابهة»[٣٤].

ألَّف	العالم	كتابًا
كتب	الباحث	مؤلّفًا
أنجز	المبدع	بحثًا
أعدَّ	ـــــــــــ	ـــــــــــ

٣١ انظر: سوسير، علم اللُّغة العام، ١٥٠.

٣٢ محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، (طرابلس: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤)، ٢٩.

٣٣ بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، ٨٢.

٣٤ سوسير، علم اللُّغة العام، ١٤٥.

وبذلك يتَّضح أنَّ كلَّ وحدةٍ كلاميَّةٍ هي في علاقة استبداليَّة مع الكلمات الغائبة والمُبعدة، وهذه العلاقة الاستبداليَّة الَّتي تتشكَّل خارج السِّلسلة الكلاميَّة مكانها في الدِّماغ: فهي جزءٌ من الذَّخيرة الدَّاخلية للُّغة الَّتي يملكها كلُّ متكلِّم، ومن ثمَّ الإنشاء اللُّغويُّ يقوم على علاقتَين؛ هما: علاقة الحضور، وعلاقة الغياب. فالعلاقات النَّسقيَّة علاقات حاضرة؛ ذلك أنَّها تتشكَّل من تجاور عنصرَين أو أكثر ضمن سلسلةٍ خطيَّةٍ حقيقيَّةٍ فعَّالة، في حين أنَّ العلاقات الاستبداليَّة تعوِّل على الذَّاكرة لا على ما هو موجود ضمن السِّلسلة الكلاميَّة، فتربط بين العناصر بصورةٍ غيابيَّة، من خلال سلسلة من الاحتمالات الممكنة الَّتي كان بالإمكان أن تحلَّ محلَّ عناصر أخرى[٣٥]؛ فعلى سبيل المثال لو قلنا: «الحديقة واسعة»، نجد أنَّ هذه الجملة قامت على عنصرَين متجاورَين تجاورًا أفقيًّا، وحاضرَين في الكلام، وفي الوقت ذاته هما يقابلان في الذَّاكرة احتمالات مشابهة لكنَّها غائبة، فمن الممكن بدلًا من كلمة «الحديقة» أن نقول: «البستان»، كما أنَّنا بالخيار أمام استخدام كلمة «واسعة» أو «كبيرة» وغيرها من الخيارات المتاحة، فإن كان عنصر الاختيار يشير إلى الإباحة والتَّعدُّد، فإنَّ الاختيارات ليست لا نهائيَّة، إذ تؤطَّر ضمن مجموعة من الكلمات الَّتي تشترك في المعنى إلا أنَّها تختلف في الدَّلالة.

وبذلك يتبيَّن أنَّ التَّعاقب الَّذي يُلحَظ بين الوحدات داخل النِّظام، والتَّرتيب الَّذي يربط بين هذه العناصر هو خيار محتمَلٌ في الذَّاكرة، وترتيب حاضر في المستوى الأفقيّ، فهناك كلمات استبعدها المتكلِّم، واستعاض عنها بكلمةٍ وجدها هي الأقدر على الوفاء بالمعنى الَّذي يبتغيه؛ إذ «تحتفظ ذاكرتنا بذخيرة احتياطية من جميع الأنماط المُعقَّدة للسنتاكم، مهما كان صنفها أو طولها، ثم نستعين بالمجاميع الإيحائية لنختار منها حين يحل وقت استعمالها»[٣٦]، فهناك خيارات واحتمالات عدَّة أمام المتكلِّم، وذكر كلمةٍ بدلًا من أخرى لا يكون عبثيًّا؛ إذ يغيِّر في المعنى، «فإنّ أصل المعنى إذ ينشأ في اللّفظ ينشأ محفوفا بمعاني ثوان هي مما ينجم عن خيارات النظم، ويتجلى ذلك في أنّ ناظم الكلام لا بد له إن اعتمد هيئة في النظم من أن يكون قد رجّحها على ما تركه من ممكنات غيرها، وهو ما لا يمكن أن يفهمه المتلقي»[٣٧].

٣٥ انظر: سوسير، علم اللُّغة العام، ١٤٢-١٤٣.

٣٦ سوسير، علم اللُّغة العام، ١٤٩.

٣٧ السوداني، أصول التّفكير الدّلالي عند العرب *(من اللُّزوم المنطقيّ إلى الاستدلال البلاغيّ)*، ٣٨٣.

ومن ضروب الاختيار ما يتعلَّق بنمط تأليف الجملة وتجاور عناصرها، فقد يستبدل المتكلِّم كلمة بأخرى أو يستعيض عن التَّعبير المباشر عن الفكرة بأسلوب مجازي، يجد فيه طريقًا أبلغ في التَّعبير، أو يتطلَّبه السِّياق، أو يكون للاختيار أبعادٌ نفسيَّةٌ ترتبط بالمتكلِّم، فللاختيار أهمِّيَّته في الإنشاء اللُّغويّ، ومثال ذلك ما نجده في قول ابن الرُّوميّ[٣٨]: [الطويل]

بُنَيَّ الَّذي أهْدَتْهُ كَفَّايَ للثَّرَى فيَا عِزَّةَ المُهْدَى ويا حَسْرة المُهدِي

يرثي ابن الرُّوميّ في هذا البيت ابنه (محمّدًا) الَّذي مات وهو صغير في السِّنّ، ولم يرد الشَّاعر أن يقول: إنَّه دفنه وواراه التُّراب؛ ولعلَّ علَّة ذلك تعود إلى ما يحمله هذا التَّعبير المباشر الصَّريح من ألمٍ وأسى؛ إذ كان بإمكانه أن يختار تعبيرًا مباشرًا، لكنَّه آثر أن يبتعد عن هذا النَّوع من التَّعبير إلى تعبيرٍ بلاغيٍّ جماليّ؛ لذا شبَّهه بالهديَّة. مع الإشارة إلى أنَّ ليس ثمَّة قواعد صارمة تُحدِّد ما يمنح النّصَّ شعريَّته؛ فإن كان الانزياح الفنِّيُّ وسيلةً من وسائل الشِّعريَّة، فإنَّ وجوده ليس كفيلًا في جعل النَّصّ ينتمي إلى الأدب؛ إذ الأمر يرتبط بوظيفة الانزياح ضمن النَّصّ؛ إذ تكمن خصوصيَّة النُّصوص الفنيَّة بوظائف ما تتضمَّنه من خصائص.

ومن ذلك أيضًا ما نجده في التَّعبير عن الكرم؛ إذ إنَّ أمام المتكلِّم خيارات عدَّة، فمن الممكن القول: فلان كريم، أو جواد، أو فلان كالبحر كرمًا، ومن الممكن القول كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا: [المتقارب]

طويلُ النِّجادِ رفيعُ العمادِ كثيرُ الرَّمادِ إذا ما شتا

أرادت الخنساء أن تعبِّر عن كرم أخيها، لكنَّها استعاضت عن التَّعبير المباشر القريب، واستخدمت أحد أنواع الصُّورة، وهو الكناية، فقالت: (كثير الرماد)؛ لما في هذا التَّعبير من مبالغةٍ في صفة الكرم؛ فكثرة الرَّماد تشير إلى كثرة الضِّيوف والطَّبخ الَّذي يستلزم حرق الحطب. إذن المعنى واحد لكن طرق التَّعبير عنه مختلفة، وفي كلِّ طريقةٍ دلالة مختلفة، وفي هذا ما يكسب المعنى ثراءً وجماليَّة، فالتَّعبير الكنائيُّ هاهنا أضاف مبالغة في معنى الكرم، ومن ثمَّ لم يكن اختيار هذا الأسلوب البيانيّ عبثيًّا، وإنما قدَّم إضافة للمعنى، وأسهم فنيًّا في التَّأثير في المتلقِّي.

٣٨ ابن الرُّومي، ديوان ابن الرُّومي، (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٢)، ٢، ١٦٠.

وقد ركَّزت الدِّراسات الأسلوبيَّة Stylistic studies على الاختيار بوصفه من الوسائل الأساسيَّة الَّتي تسم أسلوب كاتبٍ ما، وتكشف عما يعتريه من مشاعرَ دفعته إلى اعتماد كلمةٍ أو تركيبٍ أو نمطٍ في الكلام دون غيره، فالاختيار يكون من قائمة كلماتٍ مترادفةٍ تشترك في المعنى عمومًا، إلَّا أنَّ بينها فروقًا دلاليَّةً دقيقة، أو قد توحي ظلال بعضها بمعانٍ أعمق تعكس معنى يبغيه المتكلِّم، وقد يكون اختيار أسلوب مجازيّ أو بيانيّ فيه من المبالغة وجمال التَّعبير ما لا يحمله التَّعبير المباشر، وقد يكون الاختيار لنمطٍ في الكلام دون غيره، كأن يختار المتكلِّم أسلوب التَّقديم والتَّأخير، أو الحذف، أو الأسلوب الإنشائيّ عوضًا من الخبري أو العكس... ومن ذلك قول الشَّاعر: [الكامل]

سَقَتْها خُرُوقٌ في المسَامعِ، لم تكُنْ عِلاطًا، ولا مَخْبُوطَةً في الملاغِمِ

يحوي هذا البيت الشِّعريُّ مجازًا في إسناد فعل السَّقي إلى الخروق، وليس في دلالة السَّقي نفسها؛ لكونها لم تخرج عن نطاق الدِّلالة الحقيقيَّة الموضوعة له، ولو استُبدِلَ هذا التَّعبير المجازيُّ بتعبيرٍ حقيقيٍّ، وقيل: (سقاها الذَّائدون لخروق في المسامع..) لفاتت الطَّاقةُ البلاغيَّة والدَّلاليَّة الَّتي أضفتها عمليَّة التَّحويل المجازيَّة الحاصلة في قرينة الإسناد.[٣٩]

ومن ذلك أيضًا ما نجده في قول الصِّمَّة القُشَيْرِي: [الطَّويل]

تَلَفَّتُّ نَحوَ الحَيِّ حَتَّى وَجَدتُنِي وَجِعْتُ منَ الإِصْغاءِ لِيتًا وأَخْدَعَا[٤٠]

وقول البحتري: [الطَّويل]

وَإِنِّي وَإِنْ بَلَّغْتَنِي شَرَفَ الغِنى وَأَعْتَقْتَ مِنْ رِقِّ المَطامعِ أَخْدَعِي

فلفظة (الأخدع) في البيتين السَّالفين «ما لا يخفى من الحسن، ثم إنّك تتأملها في بيت أبي تمّام: [المنسرح]

يَا دَهْرُ قوِّمْ من أَخْدَعَيْكَ، فقد أَضْجَجْتَ هذا الأَنامَ مِنْ خُرُقِكْ[٤١]

٣٩ انظر: الجرجاني. دلائل الإعجاز، ٢٩٣- ٢٩٤- ٢٩٥.

٤٠ اللِّيت: صفحة العنق. الأخدع: عرق في العنق.

٤١ الخُرُق (بضم الخاء والرَّاء): الجهل والحمق والعنف، وتقويم الأخدعين يكون بترك العنف.

فتجد لها من الثِّقَل على النَّفس، ومن التَّنغيص والتَّكدير، أضعافَ ما وجدت هناك من الرّوْح والخِفَّة، ومن الإيناس والبهجة»[٤٢]؛ ذلك أنَّ قيمة أيِّ عنصرٍ ضمن السِّلسلة الكلاميَّة ليست في جوهره، وإنَّما فيما يحقِّقه من وظيفةٍ دلاليَّةٍ.

ويكشف تحليل البنى اللُّغويَّة linguistic structures عن الدَّلالة، ويُجلي العلاقات النَّسقيَّة بين العناصر الحاضرة والغائبة؛ إذ ثمَّة نوعان من العلاقات تندرجان ضمن العلاقات الاستبداليَّة؛ وهما: علاقتا التَّغاير والتَّشابه؛ في علاقة التَّشابه نجد أنَّ «الكلمة المذكورة تشبه الكلمة المحذوفة في المعنى، وإن اختلفت معها في الشَّكل. ونظرا إلى أنَّ شكل الكلمة المسموح بوقوعه يحكمه السياق فلا يجوز لغة أن تحل كلمة بدلًا من كلمة أخرى إذا كانت العلاقة بين الكلمتين علاقة تشابه»[٤٣].

وقد يختار المتكلِّم الحذف لما يحدثه من تغيير في المستوى الأفقيِّ للجملة؛ من ذلك قول الشَّاعر[٤٤]: [الطَّويل]

سَأَطْوِي حَدِيثَ القَلْبِ حَتَّى أُمِيتَهُ وأَسْتُرُهُ، لو أَسْتَطِيعُ، عَنِ القَلْب

فحذف الشَّاعر جواب الشَّرط، لدلالة ما سبقه عليه؛ وحذف جملة جواب الشَّرط قد يودِّي دورًا حجاجيًّا؛ إذ يسهم الحذف في التَّوكيد، وهذا من المفارقات؛ إذ إنَّ المتكلِّم يكرِّر الجملة المحذوفة بذهنه تكرارًا آليًّا Automatique [٤٥]، والتقدير: (سَأَطْوِي حَدِيثَ القَلْبِ، وأسترهُ لو أستطيع ستره).

وبذلك يبرز أثر السِّياق في الاختيار، فطريقة ضمِّ الألفاظ بعضها إلى بعض، وموقعها ضمن السِّياق الَّذي توجد فيه، هو ما يحدِّد وظيفتها الدَّلالية ضمن النَّصِّ، فالمتكلِّم ينتقي من الخيارات النَّحويَّة واللُّغويَّة الممكنة، فأمامه مندوحة من الخيارات، إلَّا أنَّها ليست جلّها ممكنة، فضمن الاختيار ثمَّة قيود نحويَّة ولغويَّة، وربَّما اجتماعيَّة، فلا يمكن مثلًا استخدام المفردات ذاتها عند التَّوجُّه إلى من هو أعلى مرتبة.

٤٢ الجرجاني، دلائل الإعجاز، ٤٦-٤٧.

٤٣ علي، مدخل إلى اللسانيات، ٣٠.

٤٤ حاتم بن عبد الله الطائي، ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطَّائي وأخباره، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٠)، ٢٤٣.

٤٥ انظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيَّة، (لبنان: دار الفارابي، ٢٠٠٧)، ٤٠٢- ٤٠٣.

نتائج البحث

من الممكن أن نجمل أهمَّ النَّتائج الَّتي توصَّل إليها البحث فيما يأتي:

– يرتبط التَّشكيل اللُّغويُّ بنوعَين من العلاقات؛ العلاقات النَّسقيَّة والعلاقات الاستبداليَّة؛ ولا وجود لبنيةٍ لغويَّةٍ من غير وجود علاقات تربط بين عناصره، فليست اللُّغة محض كلمات أو مجموعة عناصر متجاورة؛ فما يشكِّلها هو العلاقات الَّتي تربط بين عناصرها، فلا بدَّ من رابطٍ يجمع بين هذه العناصر لتكتسب قيمتها، والقيمة تكمن فيما يتولَّد بين العناصر من علاقات.

– لا يمكن النَّظر إلى أيِّ وحدةٍ كلاميَّة بمفردها من غير الانتباه إلى ما قبلها وبعدها في السِّلسلة الكلاميَّة؛ إذ يتحكَّم موقعها في أهمِّيَّتها في السِّلسلة.

– ضمن العلاقة النَّسقيَّة ثمَّة نوع من الاختيار، فالمتكلِّم قد يختار نمطًا في التَّأليف ويتجاوز عمَّا سواه، فأمامه إمكانات عدَّة على المستوى الأفقيِّ، يختار منها الأقدر على ملائمة ما يريد من معنى وغرض، فكلُّ اختيار داخل النِّظام يولِّد دلالات جديدة، والتَّبادل في التَّرتيب بين عناصر الجملة هو خيار المتكلِّم، يستثمره حينما يجد فيه وسيلة أجدى في التَّعبير.

– الاختلاف في ترتيب عناصر الجملة ليس محض اختلافٍ شكليٍّ؛ ذلك أنَّ وراء هذا الاختلاف في بنية الجملة اختلافًا في المعنى، فضلًا عن تأثيره في المتلقِّي وتنبيهه إلى دلالة معيَّنة.

المصادر والمراجع

ابن الأثير، ضياء الدِّين، محقَّق. *المثل السَّائر في أدب الكاتب والشَّاعر*. القاهرة: دار نهضة مصر، (د. ت).

ابن جنّي، أبو الفتح عُثمان، محقَّق. *الخصائص*. (د. م): المكتبة العلميَّة، (د.ت).

ابن الرُّومي، محقَّق. *ديوان ابن الرُّومي*. بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٢.

الجرجاني، عبد القاهر، محقَّق. *أسرار البلاغة*. القاهرة: مطبعة المدني، جدَّة: دار المدني، د. ت.

الجرجاني، عبد القاهر، محقَّق. *دلائل الإعجاز*. القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠٤.

السوداني، د.حسين. *أصول التفكير الدّلالي عند العرب (من اللُّزوم المنطقيّ إلى الاستدلال البلاغيّ)*. الرِّياض: مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللُّغة العربية، ٢٠١٧.

الطائي، حاتم بن عبد الله، محقَّق. *ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطَّائي وأخباره*. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٠.

العلوي، يحيى بن حمزة. *الطِّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز*. مصر: دار الكتب الخديويَّة، ١٩١٤.

بوقرة، د. نعمان. *المدارس اللسانية المعاصرة*. القاهرة: مكتبة الآداب، (د. ت).

جومسكي، نوم. *البِنى النَّحويَّة*. ترجمة: د.يؤيل يوسف عزيز. بغداد: دار الشُّؤون الثَّقافيَّة العامَّة، ١٩٨٧.

خليل، إبراهيم محمود. *في اللّسانيَّات ونحو النص*. عمان: دار المسيرة، ٢٠٠٩.

راغب، نبيل. *موسوعة النَّظريَّات الأدبيَّة الحديثة*. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، القاهرة: الشَّركة المصريَّة العالميّة للنَّشر– لونجمان، ٢٠٠٣.

سوسور، فردينان دي، *علم اللُّغة العام*. ترجمة: د.يوئيل يوسف عزيز. بغداد: دار آفاق عربيَّة، ١٩٨٥.

السَّيَّاب، بدر شاكر. *ديوان بدر شاكر السَّيَّاب*. بيروت: دار العودة، ١٩٧١.

سيبويه، أبو بشر عَمرو بن عثمان بن قَنبر، محقَّق. *الكتاب*. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٢.

صولة، عبد الله. *الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيَّة*. لبنان: دار الفارابي، ٢٠٠٧.

عبد المطَّلب، د.محمَّد. *جدليَّة الإفراد والتَّركيب في النَّقد العربي القديم*. القاهرة: الشَّركة المصريَّة العالميّة للنَّشر– لونجمان، ١٩٩٥.

علي، محمد محمد يونس. *مدخل إلى اللّسانيَّات*. طرابلس: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤.

ياكبسون، رومان. *قضايا الشِّعريَّة*. ترجمة: محمَّد الولي ومبارك حنون. الدَّار البيضاء: دار توبقال، ١٩٨٨.

Kaynakça

Abdulmuttalib, Muhammed. *Cedeliyyetü'l-ifrâd ve't-terkib fi'n-nakdı'l-Arabi'l-kadîm*. Kahire: eş-Şerike'l-Mısrıyye'l-Âlemiyye li'n-Neşr, 1995.

Ali, Muhammed Yûnus. *Medhal ile'l-lisâniyyât*. Trablus: Dâru'l-Kütübi'l-Cedidi'l-Müttehıde, 2004.

Bukırra, Nu'man. *el-Medârisu'l-lisâniyye'l-muâsıra*. Kahire: Mektebetü'l-Edeb, ts.

Chomsky, Noum. *el-Binâü'n-nahviyye*. trc. Yoel Yusuf Aziz. Bağdat: Dâru'ş-Şuûni's-Sekâfiyye'l-Âmme, 1987.

el-Cürcanî, Abdulkahir. *Esrâru'l-belâğa*. Kahire: Matbaatü'l-Medeni-Cidde: Dâru'l-Medeni, ts.

el-Cürcanî. *Delâilü'l-i'câz*. Kahire: Mektebetü'l-Hanci, 2004.

el-Halil, İbrahim Mahmud. *fi'l-lisâniyât ve nahvu'n-nâs*. Umman: Dâru'l-Mesîra, 2009.

el-Alevi, Yahya bin Hamza. *et-Tırâzu'l-mütedammin li Esrari'l-belâğa ve ulûmi hakâiki'l-i'câz*. Mısır: Dâru'l-Kütübi'l-Hıdeviyye, 1914.

es-Sûdânî, *Hüseyin. Usûlü't-tefkîri'd-delâlî inde'l-Arab (mine'l-lüzûmi'l-mantıkî ile'l-istidlâli'l-belâğî*). Riyad: Merkezü'l- Melik Abdulaziz ed-Düvelî li Hidmeti'l-Lüğati'l-Arabiyye, 2017.

et-Tâî, Hatem b. Abdullah. *Divan şiir Hatem bin Abdullah et-Tâî*. Kahire: Mektebetü'l-Hanci, 1990.

İbn Cinnî, Ebü'l-Feth Osman. *el-Hasâis*. Yy: el-Mektebetü'l-İlmiyye, ts.

İbnü'l-Esîr, Ziyâüddîn. *el-Meselü's-sâir fî edebi'l-kâtib ve'ş-şâir*. Kahire: Dâru'n-Nahda, ts.

İbnü'r-Rûmî. *Divanu İbni'r-Rûmî*. Beyrut: Dâru'l-Kütübi'l-İlmiyye. 2002

Jakopson, Roman. *Kadâyâ'ş-şi'riyye*. trc. Muhammed el-Velî, Mubarek Hannun. Beyda: Dâru Topkal, 1988.

Râgıb, Nebîl. *Mevsûatü'n-nazariyyati'l-edebiyyeti'l-hâdise*. Beyrut-Kahire: Mektebetü Lübnan, eş-Şeriketü'l-Mısrıyyetü'l-Âlemiyye li'n-Neşr, 2003.

Saussure, Ferdinand de. *İlmu'l-lügati'l-âmm* trc. Yoel Yusuf Aziz. Bağdat: Dâru Âfâki'l-Arabiyye, 1985.

Savle, Abdullah. *el-Hicac fi'l-Kur'an min hilali ehemmi hasâisihi'l-uslûbiyye*. Lübnan: Dâru'l-Farabi, 2007.

Sibeveyh, Ebû Bişr Amr b. Osman b. Kanber. *el-Kitab*. Kahire: Mektebetü'l-Hanci, 1982.